

القريبة والكصوص

قصّة بقلم طه حواس

- أبداً ؟
 - أبداً وحياتك عندي ..
 ونار الخفير :
 - وتحلف بحياتي كذب ؟
 - أبداً والله ..
 - اذن لماذا رويت القطن في غير ميعاده ؟
 وارترك الرجل وسأل نفسه :
 - في غير ميعاده ؟
 واجاب الخفير في هدوء ساخرا :
 - نعم في غير ميعاده .
 - ولكن لماذا ؟ السنة في يوم الخميس .. ؟
 - نعم ..
 - اذن هذا هو ميعاد ري القطن .
 وعاد الخفير الى ثورته وتهديده :
 - أكذبني يا ابراهيم يا بوزيدان ؟ اتغالط الحكومة ؟
 - أبداً لقد حسبتها . واليوم هو ميعاد ري القطن .
 هز الخفير بندقيته على كتفه ، وضغط على طربوشه .. وصاح :
 - راجع حسابك يا ابراهيم يا بوزيدان . لا تغالط الحكومة ..
 عندك غرامة .. السلام عليكم ..
 وانطلق الخفير على الطريق يثرثر :
 - يوم الخميس . أي يوم خميس هذا الذي يقول عنه ؟
 على العموم . خميس . جمعة . سبت . المهم المخالفة . ونظر الى
 الخلف ورفع صوته .
 - يا ابراهيم يا بوزيدان . أريد ان اقابلك الليلة عند عبده البقال
 - ان شاء الله .. ربنا سهل .
 ★ ★ ★
 جماهير غفيرة حول بيت العمدة .. امتلات الارض والفضاء حوله
 بالناس .. نساء ورجال يسرون حول البيت في حيرة .. تتقابل
 نظراتهم فيتناسمون الالم والحسرة .. طال انتظارهم امام البيت . تعبت
 عيونهم من النظر تجاه الباب .. ودوا لو تستطيع اذانهم ان تسمع ما
 يدور خلفه . افترشوا الارض . قال ابراهيم ابوزيدان ، وقد اسند
 ظهره الى الجدار :
 - آه لو كنت دخلت الزريبة عندما رجعت من الفرح ؟
 قالت زوجته وهي تخط في التراب بين قدميها بعود من الحطب
 قد نخره السوس :
 - هذا امر الله .. المكتوب لا بد من نفاذه .. ومن يدري ربما
 كانوا قتلوك ..
 - كان القتل أهون ..
 انقصف عود الحطب في يدها . اقترب منهما رجل يرتدي صدريا
 فوق فائلة امتصت كثيرا من عرقه مختلطا بتسراب الارض ، وسروالا
 طويلا يغطي نصف ساقيه النحيلتين كان يضرب كفا بكف .. مرددا :
 - يا خراب بينك ياسيد يا أبو أحمد .. الله يخرب بيوتهم ..
 العوض على الله ..

★ ★ ★

وقف المعلم ابراهيم صاحب مقهى ابن البلد امام دكان عبدالسلام

التفت به على الطريق . كانت تسير مع مجموعة من نساء القرية .
 جرتها فوق رأسها . تمسك ذيل ثوبها بيدها اليمنى تحركه الى
 الامام والخلف ، ومع الحركة ينزلق الثوب الى اعلى وينخفض يلامس
 ساقيها بيضاويين في حفيف هبن رقيق .
 حذاؤه الميري يدب على الارض في خطوات سريعة . نصب قامته
 عندما اقترب منهن . تنحنج بصوت مرتفع .. انزعج بعض اطفال كانوا
 يلعبون على الطريق . جروا في لهفة وهم يرددون ..
 - أبو مسعود . أبو مسعود ..
 ابتسم أبو مسعود . رفع يده اليمنى يتلمس شاربه . بينما
 عيناه تختلسان النظر الى ساقيهما .. كف النساء عن الثرثرة رفع
 صوته الغليظ :

- صباح الخير يا اولاد .

رد بعضهم .

- صباح الخير يا أبو مسعود .

لم يسمع صوتها . ابطا في خطواته - سمع ضحكاتها .

نظر الى حذائه . خلع طربوشه . نظر الى البطاقة النحاسية
 والرقم المكتوب عليها . لم يسأل نفسه في يوم من الايام كيف يكتبون
 الارقام على النحاس .. ولكنه يعرف انها تعطيه امتيازا على جميع
 الناس في القرية ما عدا شيخ الخفر والعمدة .

- هذه البنت يجب ان اكسر رقبتها . ساقتل من يقترب منها .

لن يتزوجها احد غيري ..

بعدت اصوات قدميه . زفرت زكية زفرة طويلة ..

- رجل عينه زائفة .

وقالت جارتها :

- ما عيبه يا زكية ؟

اجابتها زكية في سخرية .

- لا شيء . تزوجه أنت .

- ليته تكلم عني . هي البلد فيها كم خفير ؟

★ ★ ★

كان ابراهيم ابو زيدان يجلس امام زوجته على الجسر .. يتناولان
 طعام الغداء . رآه يأتي من بعيد فاستعاذ بالله .. وتساءلت زوجته:

- خيرا ؟

- وهل يأتي سيد أبو مسعود بخير ؟

- ألم ندفع المال ؟

- دفعناه .

- اذن ماذا يريد الخفير ؟

- لعله ذاهب الى غيرنا ..

اقترب الخفير وقف على الطريق ورفع صوته ..

- يا ابراهيم يا بوزيدان .

- خير ان شاء الله ؟

وصاح الخفير ..

- من اين يأتي الخير اذا كنتم لا تنفذون تعليمات الحكومة ؟

وقال الرجل في حيرة :

- انالم اخالف التعليمات .

وقال الخفير في تهكم :

البقال يتموج جلبابه الأبيض الحريري مع هبات النسيم .. علق عصاه
المعاجبة على ذراعه اليسرى ودس يده اليمنى بين ثيابه . أخرج
حافظة نقوده ودفع ثمن صندوق السجائر . قال وهو ينظر الى
الناس امام بيت العمدة :

- غلابة . ماذا ينتظرون ؟

وقال البقال :

- ينتظرون رأي العمدة .

- وماذا يستطيع العمدة ان يعمل لهم او لنفسه ؟

- انهم يقولون لا بد ان يقوم الخفراء بعمل ما ..

- سمعت انه في مثل هذه الحالات لكي تعود اليهم مواشيهم

لا بد من دفع الحلوان .

- يستطيع العمدة والاعيان ان يدفعوا .. ولكن من اين يأتي

هؤلاء بالحلوان ؟

اقترب سيد ابو احمد من الباب . كان يسير في ببطء متردداً،
ينظر خلفه في توجس .. فلم يكن في يوم من الايام يفكر بأنه سيطرق
هذا الباب بل على العكس كانت رؤيته لهذا الباب تثير في ذهنه
عذاب يوم القيامة ، وصور الجنيئات الذهب الملتهبة بنار جهنم والتي
تكوي اجسام الذين يكتزونها ولا ينفقونها في سبيل الله .

ورفع يده في وجل وخوف . خفق قلبه مع طرقات يده على الباب،
وخيل اليه ان الله سيثقل يده لانه لا يريد ان يلوث ماله .. لقد
ظل طول عمره لا يمد يده لاحد .

زادت الطرقات شدة . لا يريد احداً ان يراه في هذا الموقف .

فسمع سعال الرجال في الداخل وأصوات أناس تقترب .

ضغط على الباب فقد يكون مفتوحا . أتاه صوت الرجل :

- انتظر يا ابني . سأفتح لك حالا ..

لكن سيد ابو احمد المزاج الذي تباطأ في يد الرجل . واندفع

الى الداخل بمجرد ان فتح الباب . رحب به الرجل . ادخله حجرة

السيوف : أرض مكشوفة كنبه من الخشب على يمين الداخل .

مفروشة بقطعة من الحصير . جلس سيد ابو احمد في اضطراب

وخجل . ماذا يقول للرجل وبأي شيء يبدأ . هل يرضى أن يعطيني قيمة

الحلوان بدون فوائد ؟ بمجرد ان أبيع الفطن سارد له المبلغ مباشرة .

واتاه صوت الرجل :

- خير ان شاءالله ياسيد .

انكمش الرجل .

- خيسر ..

تابع الرجل حديثه وهو ينظر اليه خلسة :

- شرفت بيتي بزيارتك .. رحمة الله على والدك .. كان خيره

على الناس كلها .. كان صاحب فضل .. لا يفوته الواجب ..

شجعت هذه الكلمات سيد ابو احمد ، لكن لسانه لم يقدر على

حمل الكلمات فارتبك وتلملم في مكانه . وأراد الرجل ان يشجعه

.. فسأله :

- هل سرق اللصوص منك شيئاً ياسيد ؟

وأجاب الرجل في ألم :

- خربوا بيتي الله يخرب بيوتهم ..

- لقد سرقوا معظم بهائم البلد ولكن لم اعلم ان بهائمك قدسرفت .

ماذا سرقوا منك ؟

- الجاموسة والبقرة .

وقال الرجل :

- ياخسارة . وكيف ستزرع الارض ؟

- ربنا يسهل الامور .

- سمعت ان اللصوص يريدون حلوانا للبهائم ..

- لاجل هذا أتيت اليك اليوم .

- لقد أتاني ناس كثيرون هذه الايام ياسيد ، وقالوا ان اللصوص

يريدون ثلاثين جنيها للبهيمة

فهل تريد ستين جنيها ؟

وقال الرجل في ارتباك :

- أستطيع أن ابيع ما عند امرأتي من صيفة بعشرة جنيهات .

- اذن تريد خمسين جنيها ؟

- نعم - وساردها لك بعد شهر واحد .. بعد ان أبيع الفطن ..

- تردها .. مائة ؟

- مائة ؟ مائة جنيها بعد شهر واحد .. ؟

- نعم . لقد اخذ الناس كل ما كان معي .. فلم يبق معي الا هذا

المبلغ .. فاذا كان الشرط يناسبك فلا مانع ..

- مائة جنيها .. بعد شهر واحد .. ؟

- نعم .. تقبل ام لا ؟

في الحر اللافح، الارض تشع حرارة . ونصل الفاس الدافئ يضرب
وجه الارض . يختفي بين حصاها . ترفعه ذراعان قويان تتساقط
بينهما حبات عرق . ينضحها وجه أسمر . تشربها التربة العطشى .
ضربات الفاس تثير غبار الارض الذي يثوب في الفضون . وصوت ناي
يأتي من طرف الحقل يثير الشجى ، وصوت انسان على الطريق ..

- يا عم سيد .

التفت الرجل ناحية الصوت . اتكا على يد الفاس . ومع صوت

الناي سمع الخبر .

- لقد عادت بهائم العمدة ..

- وبهائمنا ؟ لقد دفعنا الحلوان ؟

- يقولون غدا ؟

- غدا .. ؟ ولماذا ؟

- لا أحد يدري ..

أنصت عم سيد لصوت الناي .. رفع الفاس فوق كتفه . خرج من

الحقل . سار على الطريق يسحب قدميه في بطء ..

قال شيخ الخفر للعمدة :

- سمعت الناس يقولون .. لماذا لم يعد اللصوص يسرقون بهائم

العمدة واعيان البلد ؟

لقد مضت مدة طويلة وهم لا يسرقون الا بهائم الفلاحين .

ونظر العمدة الى المرابي الذي قال بعد تفكير :

- لان العمدة والاعيان يدفعون آتاوة للصوص .

ابتسم شيخ الخفر وقال :

- فاذا كان الفلاحون يريدون ان لا يسرق اللصوص بهائمهم فيجب

عليهم ان يشاركوا في هذه الآتاوة ..

وقال العمدة :- هذا الحل لا يعجبني .

وقال المرابي في اندهاش :

- لماذا يا حضرة العمدة ؟

- لا يعقل ابدا ان العمدة يخاف اللصوص .. ويدفع لهم آتاوة .

وقال شيخ الخفر :

- اذن ماذا نقول للناس ؟

وقال العمدة :

- نقول لهم ان اللصوص لا يسرقون بهائم العمدة والاعيان لانهم

بحرسونها حراسة شديدة ..

اشترى ابراهيم الشامي بندقية . بلغ الخبر شيخ الخفر، العمدة

.. خباها في ارض الزريبة في حفرة عميقة بجوار الجاموسة .. فنش

الخفراء داره . لم يعثروا عليها .. وبعد المشاء عاد ابراهيم من المسجد .

طرق الباب . ازلت زوجته الحجر الضخم من خلف الباب . ولسناه

نائمان على حصيرة في ارض الحجره .. نام مع زوجته على سرير

من الجريد . وعندما اطبق النوم جفنيهما تسلل الى الزريبة ..

اخرج من جيبه سكيناً ازاح التراب من الحفرة .. تناول البندقية. تسلق الجدار الى السطح . استلقى بين أكوام القش . وضع الطلقتين في البندقية . حملق في الظلام ...

– من أين سيأتون ؟ لو كان معي سالم ؟

الزريبة مكشوفة . الجاموسة راقدة تجز طعامها في أحد الأركان. انتظر ابراهيم للصوص « سينتظروا » ويثبت للقريبة أنه يستطيع أن يفت في طريقهم . لن يستطيعوا سرقة الجاموسة . ولن أرهن شبرا من أرضي للعمدة .. أو للمرابي لأجل الحلوان .. لقد اشترت بندقية .. لو قتلت منهم واحدا فقط سيهربون ..

ضربت الجاموسة مؤخرتها بطرف ذيلها .. حذق ابراهيم في الظلام تحسس بندقيته . أرهف أذنيه . يفصل الزريبة عن الحقول جدار قصير يستطيع الإنسان أن يقفز من فوقه . ثلاثة أشباح تتحرك . تقرب من الجدار . اعتدل ابراهيم في مكانه . اختبأ خلف كومة من القش . أنهم مسلحون . يجب أن يبدأ قبلهم . صوب بندقيته . اقترب أحد الثلاثة من الزريبة . نظر الى الطريق الرئيسي . اقترب الاثنان الاخران وقفوا امام الجدار ينتظران الثالث الذي أخذ يجوب المكان متلصقا ..

– لا أحد هنا

وقال أحد الاثنين :

– أشم رائحة بارود .

وقال زميله في سخرية :

– لقد فتشوا داره اليوم ولم يجدوا شيئا .

قفز اثنان الى الزريبة . حرك ابراهيم البندقية في حرص وحذر . وقال أحد اللصين :

– من أين سنخرج بها ؟

– نفتح لها طريقا في هذا الجدار .

صوب ابراهيم بندقيته . اللصوص يزيلون الجدار . حبس ابراهيم أنفاسه . زادت دقات قلبه . وصوب بندقيته . ثار قلبه بين ضلوعه . أنها أول مرة يطلق فيها بندقية . ضغط على الزناد لم يسمع غير دقات قلبه .. لم تنطلق البندقية . قال أحد اللصوص :

– لقد سمعت صوت زناد .

التصقوا بجدار الزريبة . وقال احدهم : انه فوق السطح . لقد باغني الرجل بندقية تالفة .. سأضيع الليلة وضغط على الزناد للمرة الثانية – ولم تنطلق البندقية . وهمس أحد اللصوص :

– انه بين القش .

ورفع الآخر بندقيته . صوبها ناحية السقف . تجاه كومة القش . وسمع أهل القرية صوت الطلقة والآهة .. فزعت زينب، صاحت وهي تضرب على صدرها :

– ابراهيم .. قتلوه .. قتلوه للصوص ..

انزعج الولدان . ملاصحاها بالحجرة . خرجا خلف الام .

الى الزريبة .. ثلاثة أشباح تجري في الظلام . أنات الرجل فوق السطح تشد الام فوق الجدار . الولدان صياحها يملأ المكان . الام تتسلق الجدار .. تنعثر . تصبح ملهوفة . تشدها أنات زوجها ..

قال المرابي للعمدة أثناء تشييع الجنازة :

– لينه تركهم يسرقون الجاموسة .

وقال العمدة : – اعمار . كل شيء مكتوب .

وقالت امرأة لجارتها خلف النعش :

– ماذا ستفعل زينب الآن ؟

واجابت الجارة :

– سنتنظر سالم ..

– ومتى سيأتي سالم ..؟

– سيأتي بعد سنة .

– وماذا ستفعل في هذه السنة ؟

– ستزرع الغدان وحدها ..

كان الحمار يتمايل ألما . والعمدة يضرب بطنه بكعبي حدائه يسير ابو مسعود الخفير بجانب الحمار ، يرفع يمينه بمظلة فوق رأس العمدة .. المرابي وشيخ الخفر يسيران خلف الحمار . وبين لحظة واخرى يرتفع صوت المرابي منبها ابو مسعود لتصحيح وضع المظلة . وكلما مر الموكب بقطعة ارض سأل المرابي عن صاحبها وما عليه من دين .. وضرب العمدة بطن الحمار بحدائه .

– لم يستفد من هذه المصائب الا أنت .

وقال المرابي في خبث :

– انما اساعدهم ليستردوا بهائمهم من اللصوص وكله من خيرك يا حضرة العمدة ..

وضحك العمدة وضرب بطن الحمار بكعبي حدائه ..

كان عائدا من المسجد يسير في صمت يتحسس طريقه في الظلام. ومن خلف عيدان الذرة أتاه صوت مبجوح ..

– يا عم حسن يا رفاعي .. لا تحرس جاموستك الليلة .

التفت خلفه في تردد . لم ير شيئا .. سمع شخصا يشق طريقه خلال عيدان الذرة .

– هذا الصوت أنا اعرفه . يخيل الي اني سمعته قبل الآن .

واسرع في خطواته .. جرى نحو دوار العمدة . صاح بأعلى صوته:

– يا حضرة العمدة ، .. يا ناس .. يا حضرة العمدة .. يا ناس.

وتساءل الناس : ماذا أصابه ؟ وقابله شيخ الخفر .

– ما لك يا عم رفاعي ؟

– اللصوص . اللصوص يسرقون جاموستي الليلة .

قال شيخ الخفر وهو يحاول اخفاء ابتسامه ساخرة :

– من قال لك هذا ؟

قال من خلال لهثاته المطردة :

– سمعت احدهم يخبرني الآن وانا في طريقي الى البيت . وقال

شيخ الخفر مستنكرا :

– يخبرك ؟

– وقال عم رفاعي في ثورة .

– نعم .. سمعته يقول لي لا تحرس جاموستك الليلة . وفسى

لحظات امثلا للكان بالناس وأخذ شيخ الخفر عم رفاعي من ذراعه وسار معه الى داخل دوار العمدة بعد دقائق .

خرج ابو رفاعي الى الشارع تشييعه ضحكات العمدة وشيخ الخفر والخفراء . وقد زادت ثورته .

وأخذ يصيح وهو يعبر في الطريق :

– يا ناس .. لقد سمعت صوته – انه من أهل القرية .. ولكن

لا أستطيع ان اقول لكم اسمه . انا لا اخافه . ولكن لا أنذره .. لو

سمعته مرة أخرى لقلت لكم من هو .. سيسرق اللصوص جاموستي

الليلة .. ولكن سأحرسها ، سانام معها في الزريبة . يا عمدة .. الويل لمن يسرقها مني . ليقتلوني يا عمدة .. ولكن لن أتركها لهم .

وقال الناس : « لقد أصيب الرجل في عقله » .

في الطريق الى التربة قالت امرأة لجارتها :

– أين كان الخفراء ساعتها ؟

– كانوا يحرسون بهائم العمدة .

– بهائم العمدة .. ويتركون الناس تقتلهم اللصوص ؟

– بيني وبينك . « حاميها حراميها » .

– ربنا ينتقم منهم .

عاد الناس من الجنازة وصيحات عم رفاعي تطاردتهم من القبر الذي

تركوه فيه .. كانت تدخل معهم بيوتهم . تسير معهم في الطرقات ..

في الحقول .. عند النوم .. عندما تقع عيونهم على رجل يجري فسي الطريق ، أو جاموسة في الحقل ..

وقف شيخ الخفر يتبين معالم الطريق . اقترب منه علوان وسأله :
- هل اقتربنا منهم ؟
هز شيخ الخفر رأسه :
- نعم .. أنهم خلف هذه الهضبة .
- أتعتقد أننا سنغلب عليهم ؟
وعاد شيخ الخفر الى السكوت . نظر اليه الجميع فسي لهفة وترقب . وقال آخر وهو يزيل قطرات عرق لمعت فوق جبهته :
- لماذا لا نتكلم .. يجب ان تأخذ بشار رجالنا .. اننا نستطيع ان نأخذ بالثأر أليس كذلك ؟

ورفع شيخ الخفر رأسه وقال :

- سنأخذ بالثأر ولكن .

وعاد الى صمته .

قال أبو مسعود الخفير :

- لماذا لا نتكلم ؟ أتعرف شيئاً لا نعرفه ؟

وسأله آخر :

- هل أنت نادم على مجيئك معنا ؟

وقال شيخ الخفر في لهفة :

- لا .. لا .. فقد قال العمدة يجب ان نذهب معهم .

وقال علوان :

- هل هم اكثر منا ؟

- لا .. ولكن لديهم أسلحة كثيرة .

ورفع علوان صوته :

- انما آتينا لنأخذ بالثأر او نموت .

ونظر الى الرجال الذين معه :

- أليس كذلك يا رجال ؟

وصاح الجميع :

- نعم .

قال شيخ الخفر :

- اذن لا تفكروا في شيء غير المعركة .. لا تفكروا في العودة ..

لا تنظروا الى الخلف .. وتقدموا . أنهم خلف هذه الهضبة . يجب ان نصل إليها في ضوء الفجر وقبل شروق الشمس . وقال أبو مسعود الخفير وقد بدا عليه الاندهاش :

- هل أصاب هذا الرجل شيء من الجنون ؟ كيف يقول لنا

لا تفكروا في العودة ؟ ألا يفكر هو في العودة . أقطع ذراعي اذا لم يكن يفكر الآن في زوجته واولاده وأرضه .. يجب ان لا يضحك عليّ هذا .. يجب ان اعود .. لا أريد ان اموت قبل ان اتزوج من زكية .. لا بد من زواجي بهذه البنت .. سيموت شيخ الخفر وسأخذ مكانه . بعد هذا لا يستطيع أحد ان يرفضني .

وابتسم في سخرية .. شيخ الخفر يسير في الامام فسي حذر وترقب . سار الخفير خلفه . أبطأ في خطواته .. سار الجميع خلف الخفير في صمت وطال السير . اخذت المسافة تتسع بين رجل وآخر انتشر الضباب في المكان أحاط بالرجال وفي وسط الضباب تراءت لهم منازل قريبهم . زوجاتهم واولادهم على الابواب أذرعهم ممدودة وفسي اعينهم لوعة ولهفة . وزادت كثافة الضباب . وساروا لا يرى احدهم الآخر وعندما تعبوا وامنتت الشمس الضباب وجدوا انفسهم امام القرية . نظر الرجال كل منهم الى الآخر .. والى نظرات أهل القرية المتسائلة .. وقال عمران وهو يجفف وجهه بطرف كفه :

- لقد سرنا خلف شيخ الخفر ..

وقال شيخ الخفر :

- لقد أضاع الضباب منا الطريق .

عندما اقترب أبو مسعود من باب البيت ، أبطأ في خطواته . هز

بندقيته على كتفه . وفجأة فتحت زكية الباب وألقت بماء الفسيل في الطريق . ابتل حذاء الخفير وذيل ثوبه .. نظرت اليه وهو يتأمل ذيل ثوبه .. ثم أغلقت الباب في عنف .. وصاح بعض الاطفال الذين كانوا يلعبون في الطريق : وأخذوا ينظرون اليه وهم يصفقون . صاح بهم الخفير مهددا ، فجروا امامه وهم يرددون :

- العبيط آهو ..

جرى وراءهم صائحا يهدد ويتوعد وقد سود التراب ذيل ثوبه . وصاحت به امرأة في الطريق :

- أترك اللصوص وتجري خلف الاطفال يا رجل ؟

وقف الخفير في حيرة . نظر تجاه باب زكية ..

- بالله العظيم لن تتزوجي أحدا غيري . ولو ارادك سالم لقتلته ..

نزل سالم من القطار .. كان آخر قطار يصل القرية في الليل . ثم غادرها كالمذمور . أغلق الناظر باب المحطة في سرعة .. امتص الظلام صوت القطار . مشى سالم وحيدا في الطريق . تذكر ان ناظر المحطة لم يكلف نفسه النظر الى وجهه .. الشوارع خالية والابواب مغلقة . أزعجه صوت قنطين تتشاجران . ارتفع صوتهما فجأة .. اقترب من البيت ..

- ستكون مفاجأة لهما .

وطرق الباب طرفتين .. وانصت .. لم يسمع أي صوت بالداخل . اعاد الطرقات بصوت اقوى .. فرزت زينب .

- اللصوص .. شيخ الخفر .. الجاموسة ..

وطرق سالم الباب مرة أخرى .. وسمع الجيران الطرقات . انكمشوا في اماكنهم . ارتعبوا . انتظرت آذانهم اصوات الطلقات . اصوات البنادق والصرخات . وارتفع الصوت ..

- افتح يا ابراهيم . انا سالم ..

ابتلعت الاجسام المنكمشة أنفاسها .. لم يصدفوا آذانهم .. فرحوا .. وعاد الصوت ..

- افتح يا ابراهيم ..

تسرب الحزن الى نفوسهم .. ماذا سيعمل عندما يعلم ان أخاه قد مات .. قتله اللصوص ؟

وخرجوا من بيوتهم .. جروا . فتحوا ابوابهم . ذهبوا الى سالم يهنتونه بسلامة العودة .. وسأل زينب عن أخيه . وبكت . حكى له الناس قصة اللصوص وأخيه والبندقية الفاسدة ..

قالت زينب :

- لقد عاد سالم . فلم هذا الحزن يا زكية ؟

قالت وخدها فوق راحة يدها :

- لم يعد مثل الاول .. لقد قل كلامه .

- لعله حزنه على أخيه . ستمر الايام وسينسى . فلا تعجلي

الامور .

- سمر الايام .. ولكنه لن ينسى .. سينساني أنا يا زينب ..

- لا تقولي مثل هذا الكلام .. فأنا أعلم أنه يحبك مثل عينيته .

وبعد لحظة صمت ، ونظرات ساهمة قالت زكية :

- ألم تنظري في عينيته ؟

- ماذا فيهما ؟

- فيهما شيء غامض لا أعرفه يشير في نفسي الحزن .

- لا تفكري في مثل هذه الاشياء . وستأتي الايام بالخير ان شاء الله .

في ظل شجرة التوت ، على جانب المصرف ، كانت عيناه تنظران الى بعيد . وكانت بجواره تخاف النظر الى عينيته . وطال الصمت بينهما وتهد في ألم . أحست كأن أنفاسه الحارة تخسرج من بين اصلاعه .. ما زالت نظراته مشدودة الى بعيد .. خندق عميق كثير

المنحنيات كنعان . يمتلىء بصف طويل مسن الخوذات تحتها رؤوس وأذرع مرفوعة بالبنادق . مياه المطر تتساقط في الخندق تفرق الاحذية . . خرج من الخندق بين الجنود . . وصوت الضابط يرن في أذنيه : « تقدموا . . الفصيلة رقم واحد . . تتقدم . ا ضربوا . » مدفعه الرشاش ينتفض بين يديه غضبا . . أمطار وفنابل وانفجارات . . جثث تتساقط فدائف تغير وجه الارض . . اصابع تمسك بالتراب . . بالطين . . بالوحل . . بالدم . . وصوت . .

- ا ضرب ياسالم . .
- يجب ان نقضي عليهم .
- قالت زكية في لهفة :
- من هم يا سالم ؟
- اللصوص لقد اشتريت لهم بندقية . .
- وارتفعت دقات قلبها . . وتغير لونها . .
- أتذهب وحدك ؟
- نعم .

- ولكن أتعلم ان شيخ الخفر وبعض الناس قد ذهبوا قبلك هناك . . ولم . .

- لقد ضلوا الطريق .
- أتعرفه أنت ؟
- نعم .
- قد يقتلونك يا سالم .
- لن يستطيعوا قبل ان اقتل منهم واحدا او اثنين . .
- وماذا أعمل أنا ؟ لقد انتظرتك مدة وجودك في العسكرية . .
- أتتركني الآن وتذهب .
- لقد قتل اللصوص أخي يا زكية . . قتل اللصوص ابراهيم .
لقد سمعته زينب وهو يقول : « لا تركهم يا سالم . . لا تركهم يا سالم » .

- اذن سأتي معك . .
- لا شأن لك بهذا . انه نار أخي . .
- لن امكث في هذه القرية . خذني معك .
- هل اصابك الجنون ؟
- ليكن ولكني سأتي معك . .

وانتشر الخبر في القرية . .
- لقد ذهب سالم الى اللصوص .
ردده الكبار والصفار . وتحدثت به النسوة امام الافران وعلى شاطيء التربة . .

تحت شجرة الجميز وبجوار الساقية . وامام دكان عبيد السلام البقال . ومقهى ابن البلد . شد الخبر الناس في حلقات . قال شاب صغير في مجموعة من الاطفال امام المقهى :

- انه يستطيع ان يقتل عشرة بطلقة واحدة .
وقال آخر وكان ينصت باهتمام وكأنه يرى اللصوص تتساقط امام طلقات سالم . .

- لقد سمعت أبي يقول . . انه تصارع مع ذئب وقتله بيديه .
وقال الشاب الصغير :
أريد ان اراه مرة واحدة وهو يتصارع مع ذئب .

قال ابراهيم ابورفاعي في المجموعة الواقفة امام دكان البقال :
- انه يستطيع ان يقتلهم جميعا . . انكم لم تشاهدوه يوم معركة فرح نرجس بنت غنيم . ليلتها كانت الناس تجري امامه مثل الارانب . كانت الشومة في يده مثل السيف في يد ابو زيد الهلالي سلامة . يومها اطل رقابنا بين الناس .

وقال رجل من المجموعة التي حول البئر :

- ماذا سنعمل ؟

ونظر سيد أبو احمد الى بشر الساقية الى القاع . الجدار أملس . بنيت عش الغراب في بعض الاركان . لقد انزلت قدمه هنا كان يحاول ربط الجاموسة بالجبل - كانت تترفض في قاع البئر . تجود بأخر أنفاسها . أهل القرية حول البئر . ارتفع صراخ النسوة . الجاموسة محشورة بين الجدران الملساء . ظهرها في القاع . زادت صرخات النساء حدة . وقلت حركات أرجل الجاموسة .

نما ألهم في قلب الرجل ، وسرى الوهن في ساقيه . انزلت قدمه . سقط فوق بطن الجاموسة . رقبته مائلة على صدرها . عينها سوداوان واسعتان . اهدابها طويلة . خيل اليه أنه يراها لأول مرة . وضرب الناس كفا بكف وهم يرددون :

- العوض على الله .
- ربنا يستر .

واقبل سالم . صاح في الناس . افسحوا له الطريق الى البئر . انزلق الى القاع . رآه عم سيد . وقف على قدميه في قاع البئر . أخذ سالم منه الجبل . لفته حول الجاموسة . قذف بطرفه الى الناس . . وصاح :

- شدوا جميعا .

أخذ الناس الحبل . وشدوا . خرجت جاموسة عم سيد . نظر اليها الناس وهي تخطو الى الزريبة . وعم سيد يخطو بجوارها يتحسس جميع أجزائها .

وصاح به أحد الواقفين :
- ماذا قلت يا عم سيد ؟

قال وقد بدت على وجهه علامات تصميم وعزم :
- أنا سأذهب مع سالم . . لقد انتظرناه مدة طويلة . . ولا قيمة لنا بدونهم الآن .

وقف العمدة بحماره على الطريق ، هاله منظر أهل القرية وهم يتسابقون كأنما شدتهم استغاثات حريق . . والتفت الى شيخ الخفر الواقف خلفه وسأله :

- ماذا اصاب هؤلاء الناس ؟
وقال شيخ الخفر :

- انهم ذاهبون مع سالم الى اللصوص .
وقال العمدة في دهشة :

- الى اللصوص . .؟ ولماذا لا تذهب معهم ؟
وأجاب شيخ الخفر :

- لن أستطيع اللحاق بهم هذه المرة .

طه حواس

القاهرة

المكتبة الوطنية وفروعها

البحرين - الخليج العربي

وكلاء توزيع كتب ومجلات وادوات مدرسية
اطلبوا منها

مجلة « الآداب » ومنشورات « دار الآداب »